وأفكارهم بعيدون عمّا يبصرون فقد صحّ فيهم قول السيد المسيح: «لهم عيون ولا يبصرون، ولهم آذان ولا يسمعون».

إن حال الأكثرية الساحقة مع الطبيعة هي حال ولد أعطيته كتاباً صفحاته مليئة بشتى الرسوم. فأشكال عجيبة غريبة، وألوان بديعة خلّابة، وطباعة هي الغاية في الإتقان والأناقة، ومن منكم لا يستطيع أن يتخيّل الحماسة، بل اللجاجة، بل الشراهة التي يُقبل بها ذلك الولد على صفحات الكتاب يقلّبها فلا يروي ناظريه من تفاصيلها وتقاطيعها وألوانها الفتانة؟

ويمضي الولد كذلك في يومه الأوّل فيأتي على الكتاب من الدفّة إلى الدفّة مرّات عديدة لا مرّة واحدة. وفي كلّ مرّة تفتر حماسته وتخفّ لجاجته وتقلّ شراهته عن ذي قبل. ويعود إليه في اليوم الثاني، وفي الثالث والرابع. فكلّما تمادى عهده بالكتاب زاد شعوره بأنّه قد وعى جلّ ما فيه إن لم يكن كلّه. وهو شعور كاذب خدّاع. إذ ليس يكفينا لمعرفة الأشياء أن نحفظ أسماءها ونستوعب أشكالها وألوانها. بل لا بدّ من تتبع مجاري الحياة فيها ومن فهم غايتها من الوجود وغاية الوجود منها.

وهكذا ينتهي الولد بأن يصبح ذلك الكتاب البديع شيئاً